

هذه هي الديمقراطية الصحيحة ، ولكن يجب أن نحتاط أشد الاحتياط ، فقد نسيء فهم الديمقراطية الأدبية ، فنفسد الأدب ونبذله .. والأستاذ بعد هذا قدوة لقرائه وطلابه والمعجبين به ، فليحذر أن يجب إليهم الإسفاف والابتذال (١) .

والرأى الصريح في الانتصار للصياغة وأثر الأداء نقرؤه للمرحوم أحمد حسن الزيات . ورأيه في الخلاف بين الفريقين أن أنصار الصياغة أقرب إلى الصواب من أولئك الذين كفروا بها ، ويذهب إلى أن تجديد الصور يستلزم تجديد الفكر ، وليس كذلك العكس ، والعناية الدقيقة بالعبارة سبيل إلى تجديد التفكير وإحسان التخيل ، كما قال فلوبيير ، وفلوبيير هذا كان إمام الصناعة في فرنسا ، أخذ نفسه بالتزام مالا يلتزم غيره ، فكان لا يكرر صوتاً في كلمة ، ولا يعيد كلمة في صفحة ، وكانت أذنه هي الحكم الأعلى في صوغ الكلام ، فلا يصيغ منه إلا ما حسن انسجامه ، وتعادت أقسامه وتوازنت فقره . قال فيه تلميذه موباسان « كان يرفع الصحيفة التي يكتبها إلى مستوى نظره ، وهو معتمد على مرفقه ، ثم يتلو ما كتب جاهراً بتلاوته ، مصغياً لإيقاعه ، فكان في نبره وإرساله يوفق بين السككنات والحركات ، ويؤلف بين الحروف والكلمات ، ويضع الفواصل في الجملة وضعاً دقيقاً محكماً ، فكأنها الاستراحات في الطريق الطويل ، وقال هو لبعض أصحابه : « وتقول إنني شديد العناية بصورة الأسلوب ، والصورة والفكرة كالروح والجسد ، هما في رأبي شيء واحد » .

ولاشك أن هذا الدفاع عن الصياغة إنما هو دفاع عن أسلوب الزيات وأمثاله من كبار الأدباء ، الذين يتأنقون في رسم الصور ماوسعهم التأنق وبيروزون الأفكار والمعاني في أزهى حللها من الرونق والنضارة . وذلك ماميز أديهم وكتابتهم ، وجعلهم في طليعة أصحاب الأقلام ، وفي صناعة الكلام ، لأنهم في أكثر الأحيان يتناولون موضوعات كثيرة مما يتناول غيرهم من الذين تتاح لهم فرصة الكتابة . ولكنك حين تقرأ هذه الكتابة وتلك سترى الفرق الكبير في الصياغة والتعبير ، وستفطن من غير شك إلى الفرق بين الفنية وغير الفنية ، وسترى الحكم يسبق إلى لسانك ، فتقول هذا أديب يعرف الأدب ، ويملك أدواته ، وهذا غير أديب يعبر كما يعبر الناس . وإن شئت قلت في هذا الأخير : إنه يفكر كما يفكر الناس ، ولا فرق بينه وبينهم إلا أنه يستطيع أن يكتب في صحيفة أو كتاب

(١) فصول من الأدب والقد .